حلم خطا للواقع .. فرسم الحيرة!

أحلام طه

أحلام طه

منذ نعومة أظافري، وأنا أعشق الرياضيات، لهوت معها، فداعبت عقلي الصغير، فكانت تدغدغ مخيخي، فتطلق العنان لذكائي ليتحدى تلك المسائل الصعبة، فيحلها وينتصر عليها. ومن ساعدني في اكتشاف هذا الحلم، معلمتي في المرحلة الابتدائية، قالت يوماً للمديرة على مسمعي: «هذه الطالبة في الصف الثالث، ولكنها تستحق أن تكون في الصف الخامس؛ لأنني أعطيتها امتحانات الصف الرابع، فحصلت على علامات كاملة في جميع المواد، لذلك أطلب منك أن ترفعيها تلقائياً إلى الصف الخامس، فهي تستحق ذلك، وبجدارة».

ثم قدمت لي هدية، وهي كتاب «ماري كوري»، ما زلت أحتفظ به ليومي هذا، حيث قمت بدور المعلمة مراراً وتكراراً، أشرح الدرس، وأوضّحه للطالبات، وأحياناً أنال الثناء من معلمتي الفاضلة قائلة: «لو في مثلك عشرة». وبهذا لم أتوانَ عن تحقيق حلمي في أن أصبح معلمة «رياضيات»، وأذكر مقولة الدكتور في الجامعة الذي حضر حصة لي لتقييم أدائي العملي بعد انتهاء فترة التدريب: «اسمعي يا بنتي: «خلقت لأن تكون معلمة، دمت ذخراً لهذا الوطن»، وحصلت على أعلى تقدير في الدفعة للعام 1992.

أما ميدان العمل، فكان مفتوحاً على مصراعيه في العديد من المدارس، فقد كنت كما الهدية الجميلة الثمينة، الجميع من حولي –المحاضرين والأساتذة– يهدونني لأعزّائهم، ولكن اختياري وقع على مدرسة الراهبات الوردية (قطاع خاص)، قضيت فيها أجمل أيام حياتي المهنية العملية مع طالبات مميزات، وراهبات يقدرن الجد والعمل في بيئة جميلة وجاذبة وآمنة.

كان أول مسرح لي هو الصف الخامس، تجلى الإبداع والتميز، ولكن رغم سعادتي في هذه المدرسة، فإنني كنت أشعر بالذنب حيال مدرستي الأم التي كان يفصلها عن مدرسة الراهبات شارع القدس، لذلك انتقلت للعمل في المدرسة المقابلة لها؛ مدرسة النظامية، وعدت لأصبح زميلة لمعلماتي اللواتي سعدن برؤيتي، وقدمن لي العون والخبرة بصدر رحب، وكان عملاً مميزاً دام عامين في مدرسة مميزة.

في العام 1993، تزوجت وعشت في قرية رافات، وقد كان زوجي يوصلني إلى المدرسة بسيارته الخاصة. كانت الطريق تستغرق ثلث الساعة، وثمرة الزواج أنجبت طفلتي البكر، وكانت السعادة تغمرنا، ولكن هيهات والاحتلال جاثم على هذه الأرض، فقد استحدثوا ما يعرف «الحواجز» التي تمركزت فيها قوات الاحتلال، لتمنع الفلسطينيين من حملة هوية الضفة من عبورها، وقد أصبح فيما بعد ما يعرف بـ«معبر قلنديا»، ما أربكني ودفع زوجي ليطلب مني تقديم استقالتي لأتفرغ لتربية أطفالي، فلبيت رغبته رغم حبي لعملي ونجاحي فيه، وقدمت استقالتي العام 1995.

ولا أخفيكم الحقيقة كان شوقي وحنيني لممارسة المهنة يتجدد مع مرور الأيام والأشهر. وفي العام 1996، عاودت مزاولة المهنة في مدرسة بنات قلنديا (مدرسة وكالة)، عملت في برنامج «التعليم المساند» الذي كان يطبق للمرة الأولى في فلسطين، فكنت من السباقين للعمل في هذا المجال، وأنجزت بحثاً حول «تأثير التعليم المساند على تحصيل الطلبة»، ولكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن، ففي هذا العام، تعثرت في المدرسة فكسرت كاحلي، ما اضطرني للمكوث بالبيت، وطلب زوجي مني أن أقدم استقالتي بحجة أن المدرسة غير مؤهلة وغير صحية، والواضح أن زوجي وجد ذريعة أخرى؛ ليبقي زوجته بالبيت حرصاً على راحتها.

كنت لحوحة في طلب حقي بالعمل من زوجي لدرجة أنه ضاق ذرعاً بي، فقد راجعته بوعده، بأنه سيسمح لي بالذهاب إلى العمل؛ لأنه كان شعاره «أنا لا أسمح للمربيات في دور الحضانة، أن تربي أولادي، بينما أمهم تربي أولاد الناس». لكن سمح لي في النهاية، وتقدمت لطلب وظيفة معلمة في مدارس الحكومة، وذلك العام 2009، على الرغم من غيابي عن المهنة، عدت أزاولها بشغف المجد الذي يطور نفسه، فأخذت شهادة معلم مهني من جامعة بيرزيت – فرع ابن رشد، وشهادة معلم مميز من الفرع الإبداعي في جامعة بيرزيت، وشهادة دبلوم «دراما في التعليم» من مركز القطان لبحث والتطوير التربوي، وتواصلت مع مؤسسات عدة منها: مؤسسة تامر، النيزك، مركز معاً للعمل التنموي، من أجل تطوير ذاتي وتطوير مدرستي.

قمت بمبادرات تربوية، وساعدت الطالبات بقدر ما أمتلك من مهارات واستراتيجيات وأساليب وأدوات ووسائل من أجل تطوير تعليمهم. إنني معلمة راضية عن نفسي، ونلت رضا مشرفي الرياضيات بجدارة، إلا أنني أشعر بالحزن والأسى؛ لأن الطالبات لا يحببن مادة الرياضيات ويتصعبن منها.

لقد تواصلت مع جمعية رفاه لإبداع الرياضيات، وأصبحت عضواً فيها؛ لأن ما أنشده من طالباتي الإبداع، ولكن للأسف الطالبات يكرهن الرياضيات، وعلى الرغم من خبرتي الطويلة في تعليمها؛ فإن مستوى التحصيل متدنٍ في هذه المادة.

فكرت ملياً لحل هذا الموضوع، وخرجت عن المألوف والتقليدي إلى التعلم التعاوني النشط، حيث قمت بتقسيم الصف إلى مجموعات، واختيار قائدة لكل مجموعة، وأطلقنا عليها اسماً مقترحاً من قبل المجموعة، فعلى سبيل المثال: عندما أعطيت درس أنواع المثلث من حيث الزوايا، قمت بإعطاء كل مجموعة مثلثات عدة، ثم طلبت من المجموعة تصنيفها حسب الصفة المشتركة، وبعد إنهاء المهمة، طلبت من ممثلة كل مجموعة عرض ما توصلت له المجموعة، ثم لخصت أنواع المثلث من حيث الزوايا، واكتشفت أن هذه الاستراتيجية أكثر فعالية، وتترك أثراً للتعلم بعيد المدى.

ثم ذهبت إلى التعلم بالتكنولوجيا؛ فعلى سبيل المثال: سجلت لعبة «رياضيات لتعليم الجداول» على قرص مرن للصفوف في المرحلة الدنيا، حيث لاحظت أن الطالبات يجدن صعوبة كبيرة في حفظه، وعندما وفرت للطالبة الحاسوب تدربت بنفسها، وتعلمت ذاتياً، وأحرزت تقدماً ملموساً بعيداً عن الإحراج والضيق من التكرار، واستطاعت معظم الطالبات إتقان الجداول في التعلم عن طريق اللعب.

أما في الصف الثامن، فهناك وحدة المعاملات المالية، درّستها بالتعلم عن طريق الدراما، معتمداً على سياق درامي، الحدث الرئيسي فيها هو «استشهاد رب العائلة السائق إثر دهسه مستوطن»، وكان مؤمِّناً على حياته في إحدى شركات التأمين بمبلغ ستين ألف دينار «لقد ارتبطت القصة بالواقع الفلسطيني، ما أثّر في الطالبات وزاد من فعاليتهن لمساعدة العائلة في توزيع الإرث حسب الشريعة الإسلامية، وإيجاد الوجه الأفضل من ناحية استثمارية؛ الادخار في بنك فلسطين بالربح البسيط، أم في بنك الأردن بالربح المركب، وأيهما أفضل الربح مع الأسهم أم السندات؟ وهل تعرضت شركة التأمين للربح أم الخسارة، وفقاً لعقد التأمين.

وبهذه الاستراتيجية استطعت أن أنجز الوحدة بأقل وقت وجهد وأكبر معنى، وقد تمتعت الطالبات بهذا الأسلوب الشيق ضمن مجموعات.

ثم انتقلت للتعلم عبر المشروع في وحدة النسب المثلثية، حيث لاحظت طالبات الصف الثامن أن المعلمات يصففن سياراتهن في الساحة الأمامية للمدرسة، ما يعيق حركة ولعب الطالبات في الساحة. ولحل المشكلة، اقترحت الطالبات عمل مصف للسيارات عند الباب الخلفي للمدرسة، فأوكلت للطالبات رسم مخطط دقيق للمصف، أخذين بالاعتبار عدد السيارات، والمساحة المتوفرة في الساحة الخلفية، وطول السيارة وعرضها؛ أي بمعنى آخر المساحة اللازمة لكل سيارة.

وبعد أخذ مخططات المجموعات ومناقشتها، وقع الاختيار على أفضل مخطط لتنفيذه من قبل الطالبات على أرض الواقع، وبالفعل أنجزن المهمة، وبإتقان.

كما قمت بتفعيل غرفة مصادر للرياضيات، تشمل ألعاباً ووسائل «بطاقات، وطابات، ومجسمات، أشكالاً هندسية، خط أعداد، ثودوليت ...» واستخدمنا الغرفة للتعليم المساند، بمساعدة معلمات من المجتمع المحلي، كن يتعرفن على نقاط ضعف الطالبات من ذوي الفئة المستهدفة من المعلمة الرئيسة، ثم يقمن بمعالجة هذا الضعف بشتى الوسائل.

أما في الصف الثالث، فقد استهوتني استراتيجية التعليم التكاملي، فأخذت وحدة النباتات والزراعة، درستها بأسلوب «عباءة خبير» من خلال سياق «أنا مزارع فلسطيني، تعرضت مزرعتي لليساريع، ما أتلف الكثير من المزروعات، وأنني أكلفكم كفريق مسؤول وخبير في هذا المجال، أن تساعدوني في الحفاظ على مزرعتي من هذه الآفة، وبدون استخدام مبيدات حشرية». قمت بتأطير الطالبات كفريق خبراء، وأوكلت للطالبات مهمات تعليمية تعلمية مثل: رسم كل من المزرعة، والأدوات الزراعية، والبذور، وهنا كان الفن. ثم طلبت منهن التصنيف للبذور، وأدوات الزراعة قديماً وحديثاً، فتجلت مادة العلوم.

أما الرياضيات، فتجلت في الحساب، حيث طلبت من الطالبات حساب خسارة صاحب المزرعة من تلف كمية محددة من إنتاج المزرعة. أما تعبيرياً، فطلبت كتابة قصة عن اليسروع أو صاحب المزرعة، وكان أسلوباً ممتعاً وشيقاً للطالبات والمعلمة.

وفي الصف الثامن، قمت بتصميم وحدة الرياضيات بأسلوب مغاير للمنهاج المقرر، إيماناً مني بضرورة توظيف المادة النظرية العلمية في الحياة العملية للحاق بركب الحضارة، فقمت بعرض فيلم يوضح كيفية صنع أداة «الثودوليت»، ثم قسمت الطالبات إلى مجموعات، وأوكلت للطالبات مهمة صنع الأداة، ثم طلبت من كل مجموعة أن توظف أداتها في إيجاد زاوية ارتفاع المدرسة، ثم تجد ظل الزاوية، أما المسافة الأفقية فتقيسها بالمتر، ومن ثم تجد الارتفاع مضافاً إليه طول الطالب.

لقد استمعت الطالبات بتوظيف الرياضيات في الحياة، حيث قمن على عاتقهن الشخصي بإيجاد ارتفاع مئذنة المسجد المحاذي للمدرسة. ثم قمنا أنا وطالبات الصف التاسع بإعداد بحث علمي حول قريتنا رافات، تمت طباعته في خمس أبواب في جميع مجالات الحياة، وموثق بالصور الملونة، والمراجع المتنوعة والممكنة.

لاحظت من خلال الخبرة أن التنويع في الأساليب يقتل الملل، ويكون أكثر فعالية وديمومة وأعمق أثراً.

لقد شغل التربويين وعلماء الرياضات تدني مستوى التحصيل في هذه المادة، وبخاصة أن هذه المادة تتطلب ذكاء وتدريباً، فذهبوا إلى امتحانات «التمس» الموحدة، التي ترتب الدول حسب نسبتها في الامتحان، وطبعاً نحن دون المستوى المطلوب.

أما ما يشغلني أنا، فهو أين نحن الفلسطينيين من التقدم العلمي والتكنولوجي، ولماذا نحن نتعلم ونتخرج من الجامعات، بينما لا يوجد عندنا اكتشافات، واختراعات، ومصانع؟! لماذا نعتمد على الغير في معاشنا؟ لماذا نعتمد على الواردات؟ ولماذا حجم الصادرات قليل؟

لقد استطاعت دولتا الصين واليابان أن تنهضا بعد الحرب العالمية الأولى وتتقدما في الصناعات الثقيلة، لانهما حددتا أولوياتهما، بينما فلسطيننا في السبات العميق، نحتاج إلى التعليم من أجل الحياة العملية والتقدم في جميع المجالات، وليس من أجل رفع مستوى التحصيل. ما نعلمه هو مادة نظرية بحتة، علم من أجل الحصول على شهادة علمية لهدفين هما: الحصول على الوظيفة، أو الحصول على المكانة الاجتماعية.

أي بمعنى آخر، لا توجد قيمة حقيقية للعلم لدى المتعلمين، ولا يوجد توجيه تربوي للطلبة حسب حاجة سوق العمل، وميول المتعلم وكفاءته وقدراته.

وبالتالي، كل التنوع في الاستراتيجيات من التعلم عبر المشروع، والتعليم المساند، وغيرها من الأساليب الحديثة، والوسائل المتنوعة، لم تف بالغرض المنشود. الحيرة انتابتني، وفكرت ملياً وتساءلت كثيراً، هل الخلل في الطالب، أم في المنهاج، أم في المعلم، أم في أهداف وزارة التربية والتعليم؟

وهدتني أفكاري إلى أن الخلل في المنهاج، فعملت على تصميم وحدات الرياضيات للصفين السابع والثامن، بطرق مغايرة للمنهاج المقرر، ودرستها بطريقتي الخاصة، ولا أخفيكم أن التحسن كان طفيفاً.

تملكتني الحيرة؛ فالمعلم قدير، والاستراتيجيات متنوعة، والطالب أين؟ لم يعد الطالب لديه رغبة في التعلم والإبداع، وكيف لنا أن نجد هذا الاهتمام وهذه الرغبة؟ كيف لنا أن نجد فئة متعلمة مثقفة في مجتمع يعج بالمغريات الخادعة؟ كيف لنا أن نتعلم لنرفع فلسطين إلى مصاف الدول المتقدمة، لا نريد دولة نامية، آه قصدي نايمة. لا نريد متعلماً جاهلاً، آه قصدي فاعل. لا نريد خريجاً عاطلاً عن العمل، آه قصدي عامل.

مدرسة بنات رافات الثانوية